Journal of Humanities and Social Sciences
Volume (4), Issue (12) : 30 Dec 2020
P: 181 - 194

ISSN: 2522-3380

مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية
المجلد (4)، العدد (12) : 30 ديسمبر 2020 م
ص: 181 - 194

From village to city - The birth of the Islamic city in the Arabian Peninsula: Study in the Holy Quran

Abdelkrim Kaddouri
University of Saida || Algeria

Abstract: This article deals with a problematic subject The emergence of the city in the Arab Islamic civilization, and how to move from tribal fragmentation to living together, through monotheism, under the leadership of a prophet, judge and ruler. this by moving from the idea of a pagan tribal village governed by traditions which favor the privileged, to the city which rests on an agreed legal basis, this city represents the basis of Islamic civilization. The questions raised in this research are: how did the Arabs move to urbanization in the city of the Prophet? Was the foundation of this city a spontaneous historical fact or was it decreed in advance in the inspired book? By following the method of content analysis by describing the characteristics that distinguish a village from a city in the Noble Quran, we came to the conclusion that civilization in Islam was conceived in the founding text before being embodied by the call of the Prophet.

keywords: Qur'an - Paganism - monotheism - Village – City- living together.

من القرية إلى المدينة - ميلاد المدينة الإسلامية في جزيرة العرب، دراسة في القرآن الكريم

عبد الكريم قدوري
جامعة سعيدة || الجزائر

الملخص: يعالج موضوع هذه الورقة البحثية إشكالية نشأة المدينة في الحضارة العربية الإسلامية. وكيفية تحول من التشرذم القبلي إلى العيش المشترك، بفضل التوحيد، تحت قيادة نبي قاض وحكم. وذلك عبر الانتقال من فكرة القرية الوثنية القبلية التي تحكمها تقاليد تصبّ في مصلحة الملأ، إلى "المدينة". والتي تقوم على أسس شرعية متوافق عليها، هذه المدينة التي تمثل أساس الحضارة الإسلامية. الأسئلة المطروحة في هذا البحث هي: كيف انتقل عرب الجزيرة إلى التمدّن في رحاب مدينة النبي؟ وهل تأسيس هذه المدينة كان واقعا تاريخياً عفويا أم مرسوم سلفا في الكتاب الموحى؟ ومع اتباع أسلوب تحليل المضمون بوصف السمات التي تميز القرية عن المدينة في القرآن الكريم توصلنا لنتيجة كون أن المدينة في الإسلام قد تمّ تصوّرها في النص المؤسس قبل أن تجسّدها الدعوة المحمدية.

الكلمات المفتاحية: القرآن الكريم – الوثنية- التوحيد- القرية – المدينة- العيش المشترك.

مقدمة:

الحضارة تقاس بمقدار تمدّنها، فكل أمة تبرز على وجه التاريخ تخلق نموذجاً لمدينتها، وكان ذلك حال بابل في وادي الرافدين وأثينا في اليونان وبعدها روما. وحان دور العرب في مطلع القرن السابع الميلادي ليقيموا حضارة تحت لواء الإسلام لها مدينتها الخاصة أيضاً.

إن دراستنا للتاريخ الإسلامي المتمثل في كتب الإخباريين من أمثال الطبري وابن كثير وابن سعد وغيرهم بالإضافة إلى كتاب السيرة النبوية الشهير لابن هشام، وخاصة النص المؤسّس القرآن الكريم، جعلتنا نفكر بجدية في مدلول لفظة "المدينة" و"القرية" في القرآن الكريم.

شهدت الحجاز في نهاية القرن السادس ومطلع القرن السابع سلسلة من التطورات: سوسيو-اقتصادية وسياسية وثقافية حاسمة كالتجارة الداخلية والخارجية أيضاً، ما سيجعل المنطقة تخرج من عزلتها التي فرضتها الجغرافيا وقلة الموارد الطبيعية كالزراعة مثلاً. دخلت منطقة الحجاز في دينامية سياسية جعلتها ترتبط بالدول العظمى لتأمين تجارتها المتنامية، وصاحب ذلك، انتشار واسع للأفكار الدينية التوحيدية وخاصة منها المسيحية والنصرانية، وحركة تمدّن واسعة سوف تنطلق من مكة ذاتها. كل هذه العوامل سوف تؤسّس لحسّ هوياتي عربي، وتوق للتحرّر من ربقة القوى العظمى آنذاك كالفرس والبيزنطيين، ليترجم في الواقع سياسياً بقيام نهضة دينية وسياسية سوف يقودها نبي الإسلام، الذي سيجد نفسه مضطراً لتأسيس قاعدة سياسية وحربية منطلقها يثرب عاصمة الدولة الناشئة التي تغير اسمها لتصبح مدينة الرسول.

الدراسات السابقة:

الكثير من الدراسات تناولت ظاهرة المدينة والتمدن في الإسلام وعلى رأسها الكتابات التراثية المبكرة تناولت بالدراسة تاريخ مكة وتاريخ المدينة المنورة واقتصرت هذه الدراسات على تاريخ هاتين المدينتين ووصف تاريخهما. وفي الأعصر الحديثة والمعاصرة، ومنها:

- كانت أولى المبادرات من جانب المستشرقين، بيد أن هؤلاء نظروا إلى المدينة الإسلامية من خلال النموذج الأوروبي، ونجد ذلك في الكتاب الجامع (المدينة في العالم الإسلامي، سلمى خضراء الجيوسي، 2014 م - 1435 هـ من جزأين) مؤلف جماعي يتطرق فيه المؤلفون إلى تاريخ المدينة في الإسلام وتنظيمها المعماري والاقتصادي والاجتماعي والسياسي دون ذكر خصوصية " المدينة المنورة".
- والدراسة الثانية لعبد الستار عثمان" المدينة الإسلامية (عبد الستار عثمان، 1988 م- 1408 هـ) والذي يتطرق فيه إلى نشأة المدينة الإسلامية مع تخصيص فصل عنوانه: "نشأة المدينة الإسلامية وتطورها" يتناول فيه بالتحليل نشأة المدينة الإسلامية ممثلة في المدينة المنورة بصفتها الحاضنة الأولى للمؤسسة السياسية الإسلامية التي أسسها النبي ﷺ بصفتها ظاهرة حضارية وتاريخية وسياسية أيضاً.
- والدراسة الثالثة تتطرق لظاهرة المدينة في الإسلام لنصر محمد عارف عنوانها: (" الحضارة – القافة المدنية"، دراسة لسيرة المصطلح ودلالة المفهوم)، ولكن من زاوية المدنية التي ربطها بتحول المدينة من يثرب إلى "المدينة المنورة" بصفتها ظاهرة حضارية تاريخية محاولاً فهم دلالتها من حيث جذرها اللغوي كما شرحه "لسان العرب".
- وأما الدراسة الرابعة فكانت تلك التي قام بها هشام جعيط بعنوان (الكوفة، نشأة المدينة في الإسلام، 1986 م – 1406هـ) يدّعي فيها أن نموذج المدينة في الإسلام هو الكوفة منطلقاً من التصور الغربي للمدينة من حيث كونها حصناً وسوقاً ومركزاً عسكرياً وسياسياً سخّر للفتوحات باتجاه بلاد فارس، ضاربا عرض الحائط قرابة عشرين سنة من بداية التاريخ الهجري الذي بدأ في يثرب-المدينة.

إشكالية الدراسة:

ولئن تناولت كل هذه الدراسات بالتحليل إشكالية المدينة والتمدن في الإسلام، فإنها لم تتطرق إلا للجانب الواقعي التاريخي وأما المفهوم فلم يُخصّص له ما يستحق من الدرس حيث اكتفى معظم الباحثين بالشطر اللغوي من مفهوم المدينة. ونحن نرى أن مفهوم المدينة لم يدرس بما فيه الكفاية في الثقافة العربية الإسلامية، إذ أهمل الباحثون دراسة النص المؤسّس (القرآن الكريم) من حيث كونه فصّل في المفهوم قبل أن تبرز المدينة الإسلامية في الواقع التاريخي، وإذن كيف صاغ القرآن مفهوم المدينة؟

للإجابة عن هذا السؤال نفترض أن المدينة قد تمّ بناء صورتها مقدّماً في القرآن الكريم بوصفها بناءً اجتماعياً دينياً وسياسياً.

المنهج:

للقيام بهذه الدراسة، تبقى الطريقة الوحيدة هي مساءلة النص القرآني باتباع المنهج الوصفي مستعملاً تقنية تحليل المضمون والمقارنة بين مفهومي القرية والمدينة هذا من جهة ومن جهة أخرى اعتماد بعض كتب السيرة النبوية والواقع التاريخي لأمة الإسلام الناشئة في مطلع القرن السابع الميلادي.

القرية والمدينة عند المفسرين واللغويين:

القرية والمدينة من حيث هما مفردتان تنتميان إلى اللسان العربي بورودهما في القرآن، أصبحتا تشكلان ظاهرة حضارية فمن الطبيعي أنها تذكر، وبصفة مستفيضة، في أهم المعاجم العربية وكتب التفسير. في مقال بعنوان "**مفهوم القرية ودلالاتها في القرآن الكريم :دراسة موضوعية**" استخلص الباحث **حازم حسني زيود** مجموعة من النتائج من خلال تحليل دلالات القرية والمدينة عند المفسرين كابن كثير والزمخشري والسمين الحلبي ولسان العرب، نوردها كما يلي:

- المدينة والقرية مترادفتان، وقد خصّت المدينة في العرف بالقرية الكبيرة. يعيش فيها الناس عن طريق المساكنة : فإن قلّوا قيل لها قرية، وان كثروا قيل لها مدينة وأقل العدد الذي تسمى به قرية ثلاثة فما فوقها، وهي المنازل المركبة من جدران وسقف. هي اسم للبلد التي يكون بها قِرىً لمن يمرُّ بها، بمعنى بلد استقرار. وهي أيضاً المدينة الجامعة لزعماء الأمة ورؤسائها. المدينة الكبيرة أو الحاضرة المركزية، والقرية هي المدينة العظيمة الجامعة لعدد كبير من السكان. والمدينة الجامعة لأشتات الناس وأصنافهم. (زيود، 2016م-1437هـ، 1-31) الإقامة في المكان، فيقال مدن في المكان أي أقام فيه، المملوكة او المَسُوسة، أي :مسوسٌ أهلُها، مِنْ دانهم مَلِكهم إذا ساسهم هي مِنْ دانه يَدينه إذا ملكه وقَهَره، أي المملوكة والمقهورة، ومنها يقال للأَمة مَدِينة، أَي: مملوكة. وهي البقعة المُسَوَّرة المستولي عليها من قبل مَلِكٍ. (زيود، 2016م-1437هـ، 1-31). مما سبق يلحظ أنّ المدينة هي البقعة من الأرض المسورة المستولى عليها، والمتحكم فيها والمسيطر عليها، على عكس القرية التي يكون فيها تنافس بين القبائل والعائلات على الزعامة، والرئاسة، والسيطرة هذا من جانب، ومن جانب آخر فإنّ المدينة تأتي في سياق عام يلحظ من خلاله وجود صراع بين الحق والباطل.

فالسمين الحلبي، ولأنه عارف باللغة العربية، استطاع أن يعطي لمفهوم المدينة بعده السياسي فبالإضافة إلى كونها مكاناً لسكنى البشر، فهي المملوكة أو المَسُوسة، أي :مسوسٌ أهلُها، مِنْ دانهم مَلِكُهم إذا ساسهم ويوافقه في ذلك ابن منظور هي مِنْ دانه يَدينه إذا ملكه وقَهَره، أي المملوكة والمقهورة، ومنها يقال للأَمة مَدِينة، أَي: مملوكة. ومن هنا يتجلى البعد السياسي للمدينة. (زيود، 2016م-1437هـ، 1-31).

ومن المفسرين المحدثين من لم يهتم بالتمييز بين القرية والمدينة في القرآن ومنهم سيد قطب وهو صاحب الكتاب المشهور "في ظلال القرآن "، وعندما نتصفحه ونقرأ تفسيره للآية الواحدة والثمانين من سورة الكهف نجده يفسرها كما يلي:

" وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة، وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً، فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما....." فهذا الجدار الذي أتعب الرجل نفسه في إقامته، ولم يطلب عليه أجراً من أهل القرية _ وهما جائعان وأهل القرية لا يضيفونهما _ كان يخبئ تحته كنزاً، ويغيب وراءه مالاً يتيمين ضعيفين في المدينة..." (قطب، 2003 م– 1423 هـ، ص 2281).

لا يشك أحد في أن قطب، قبل كتابة بحثه هذا، قد اطلع على صفوة التفاسير، وبالتالي تجده لا يميز على شاكلة ابن كثير، بين القرية والمدينة. وفي هذه الحالة نجد أنفسنا في غنى عن الرجوع إلى التفاسير في دراستنا للنص القرآني. ولكننا نستفيد أكثر من اللغويين من أمثال السمين الحلبي وابن منظور كما أتينا عليهما أعلاه

أم القرى نموذج القرية القبيلة:

لقد تحولت مكة مع مرور الزمن إلى "قرية" كبيرة ساهم موقعها الاستراتيجي كوسيط جغرافي بين اليمن والشام. هذا التطور كانت له آثار اجتماعية بالغة على التركيبة الطبقية، الذي تبعها تمدّد في تقسيم العمل الاجتماعي. وتمركز الثروة لدى مجموعة هامة من أشراف قريش من رؤساء العشائر وتجمعت أكبر ثروة في عشيرة بني أمية، فأبو سفيان وحده كانت له قافلة كاملة تنقل السلع من مكة إلى باقي بقاع الجزيرة وتستورد لها أيضا وكانت واقعة بدر شاهدة على رفاه وثراء الرجل وحده وفي عشيرته الكثيرون، ففي بني مخزوم كان أبو الحكم (أبو جهل) أغنى أبناء عشيرته وكان من أعمام النبي في بني هاشم أثرياء أيضاً مثل أبي لهب الذي بالإضافة إلى ثروته كان له أولاد ذكور وجاه فساءه أن يتبع ابن أخيه (التيجاني، 2017م – 1438 هـ، ص120) وقد نزلت فيه آية تسفهه وتتوعده بالنار للعداوة التي أبداها لابن أخيه ودعوته وكان العباس من كبار التجار أيضا.

وقد تنوعت مصادر المال فمن هؤلاء من استثمر فائضه المالي في واحات نخيل في الطائف، وقطعاناً كبيرة من الجمال ومن يملك مثل هذه البهائم في الجزيرة العربية يملك الثروة علماً أن المال بالنسبة للعرب آنذاك كان امتلاك الجمال. كما أن كثرة الثراء أدت إلى تجمع ثروات نقدية تحولت إلى عمليات مصرفية عن طريق خلق خزائن نقدية يقوم عليها أمناء الخزائن، وكانت تستثمر هذه الأموال في المراباة. ومن جهة أخرى ازدهرت سوق النخاسة، التي لم تقتصر على السود وحسب، بل حتى العرب كأسرى جراء الغزوات بين القبائل المتناحرة فإما يعتق الأسير بفدية أو يبقى أسيراً ليتحوّل إلى خادم أو يباع في سوق النخاسة وكان فيهم أيضاً من الفرس والروم حيث نتج عن التحارب الدائم بين الامبراطوريتين سوق كبيرة للأسرى الذين حُوِّلوا إلى عبيد استعملوا في شتى مناحي الحياة كالزراعة والصناعة وأعمال المنازل وكانوا محرومين من الامتيازات ومثقلين بالواجبات إزاء أسيادهم وكانوا مكرهين على القيام بأعمال يأنف العرب من القيام بها مثل الرعي والحدادة والحجامة والنجارة (ولد أحمد سالم الشريف، (2017 م-1438 هـ، ص 29) وكان لقطاع الطرق دور في ازدهار مثل هذه الأسواق، حيث كانوا يعتدون على الرحالة العزل ويغنمون جراء بيعهم المال الوفير. فإذا كانت امرأة فإنها تحوّل إلى جارية تمارس بها تجارة الدعارة وقد عرف لدى العرب، بيوت مخصصة للدعارة ترفع عليها رايات حمراء،

و قد نهى الله تعالى عن مثل هذه الممارسة في محكم تنزيله ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (النور: 33).

إن هذا الوضع من الثراء الفاحش، للبعض وكثرة الفقراء المعدمين من عبيد وعمال في مختلف الحرف سوف لن ينجر عنه صراع طبقي كما يدعي الاستشراق ذو الميول الماركسية، وقد مال لهذا الرؤية الأحادية، مونتغومري وات، والذي جعله بعض الماركسيين حجة لإثبات رؤيتهم المادية للتحول الديني في جزيرة العرب. وتعارض باتريشيا كرون هذا الطرح متهمة وات بالإنسياق وراء الطرح الإسلامي القائل بأن تحول مكة إلى الاقتصاد التجاري نتج عنه تحلّل أخلاقي كان وراء ظهور الدعوة المحمدية(كرون، 2005 م – 1425 هـ، ص391)، وهي تنتقد هذا الطرح فإنها تقدّم الدعوة الإسلامية في وجهها السياسي. فالنبي ﷺ هاجم آلهة العرب المتعددة ومعها تعدد القبائل وتشرذم العرب وبالمقابل جاء بعقيدة الله الواحد ومعه مشروع توحيد الأمة (كرون، 2005 م – 1425 هـ، ص403) ولا تقف عند هذا الحد، فتوحيد الأمة له دواعيه السياسية والتاريخية وتحدّدها في التهديد الأجنبي من قبل القوتين

الكبريين مطلع القرن السابع وهما الإمبراطوريتان البيزنطية والساسانية (كرون، 2005 م – 1425 هـ، ص411) والحقيقة فإنه يصعب إرجاع الواقعة التاريخية والاجتماعية لسبب وحيد، لأنها نتاج تضافر عوامل متعددة اقتصادية وثقافية وسياسية. ويبدو أن العامل الاقتصادي والفروقات الطبقية لعبتا دوراً غالباً إبان الدعوة في مكة مثل ما سوف نفصل فيه بعد قليل. وسوف نرى أن العامل السياسي سوف تكون له الغلبة بعد الهجرة إلى يثرب.

جاء الإسلام بالتوحيد المؤسّس على قيم بديلة تسمح بعلاج أخلاقي لتلك الفروقات الطبقية برد الاعتبار للفقير والرأفة بالعبد وإمكان فك رقبته. أمام مثل هذا الخطر الذي كان بإمكانه إنزال الملأ القرشي من موضع السيادة السياسية بعدما جُردوا من الشرعية التاريخية التي يستندون عليها (التيجاني، 2017 م- 1438 هـ، ص107)، حاربوه ونكلوا به وبأتباعه، خاصة وأن السلطة الروحية كانت دائماً بيد بني هاشم والتي تغنيها كثيراً عن عوزها المادي، فما بالك إذا خرج منهم رجل نبي، فإنه سوف يحوز السلطة السياسية التي كانت بيد أعيان العشائر من أغنياء قريش.

ساهمت قبيلة قريش بثرائها ونشاطها التجاري في جلب هذه الفئات، وإقامتها في مكة ولكن بحكم المنطق القبلي، كانت تعتبر هؤلاء بالإضافة إلى كون العديد منهم كانوا رقيقا فإن الأفراد منهم المشتغلين في التجارة أو الحرف المأجورة كانوا بمثابة عبيد لديهم من حيث إنهم كانوا يعتبرون أعضاء من الدرجة الثانية. وكانت تمارس عليهم كل ما لا تحرّمه على أفرادها كالبغاء والربا إلى غير ذلك. وكان هؤلاء في غالبيتهم يدينون بالتوحيد سواء أكانوا يهودا أم نصارى (دغيم، 1995م – 1415 هـ، ص58) وكان من هؤلاء سود أحباش أو تجارٌ وحرفيون أو قيان جاريات من اليونان والرّوم. إن هذه الوضعية الاجتماعية التي يقف الملأ المكي الوثني في وجه أي محاولة لتغييرها، لأنها حسب الأيديولوجيا القبلية نفي لكيان قريش القبيلة خاصة وأن عقيدة الحمس، قد زادت في تعصبهم لمكانتهم كأشرف قبائل العرب ولأن الله حباهم من دون العرب لما أنقذ البيت الحرام من غزو أبرهة. كل هذه الوضعية سوف تكون عند ظهور الإسلام الرهان الذي يجب وفقه القضاء على هذه الدعوة، لما تحمله من خطورة على سلطة الملأ داخل مكة، وسيادة قريش على العرب كلها. وضمن هذا المنطق فإن هذا الوضع يجب أن يبقى ويتدعّم، "فقريش لا تملك ولا تملّك" وهذا الشعار ظهر عندما رفضت الخضوع للبيزنطيين بتنصيب عثمان بن الحويرث ملكا عليها تحت إمرتهم وحدث أن قريشا رفضت بعنف هذا الوضع، وقتلت ابن الحويرث بالسّم. (البغدادي، 1985م – 1405 هـ، ص156) ورفضا لهذا الوضع، يطوّر القرآن في المرحلة المكية خطابا يحمل نقداً لاذعاً للمترفين الذي يتهمهم بالشرك والفسق أو يربط فئة المترفين بالقرى، والمترفين مقابل الضعفاء في القرى الضالة وعلى رأسها مكة، وينبّه الوثنيين المتشبثين بسلطة القبيلة، ليحذرهم من عذاب الجحيم وكارثة محدقة، إن بقوا هم على دينهم ورفض التغيير.

وتأتي في سورة الأنعام الآية: {وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا* وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ} (الأنعام: 92)

وفي سورة الشورى.{وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ *فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ} (الشورى: 07) الآيتان واضحتان في تعيين فضاء الدعوة، فأم القرى(مكة)هي مكان انطلاقتها، ومن حولها من باقي قرى الحجاز وهي الطائف ويثرب وغيرهما. وهذا الكتاب موجه خطابه إلى عموم السكان وخاصة الذين يؤمنون بالآخرة، وهو يقصد هنا النصارى، لأن الطائف كانت القرية الثانية بعد مكة التي زارها النبي، ولم تكن هذه القرية خالية من هؤلاء المؤمنين باليوم الآخر، مثل الراهب الموحّد "عدّاس" والذي التقى به النبي عندما فشل سكان ثقيف في دعوته إلى الدين الجديد.

وكانت يثرب آخر محطات دعوته وكانت كذلك موطنا لهؤلاء الموحدين النصارى المؤمنين بالتوحيد، لأن هؤلاء رأى فيهم النبي سندا له، والقرية تأخذ في المرحلة المكية عن التوحيد صورة سلبية لأنها في جوهرها وثنية، وثنية

تناصب العداء لكل بشر يأتي لهداية سكانها وأتى ذكر كلمة قرية ثماناً وعشرين مرة في السور المكية ولم تذكر إلا خمس مرات في السور المدنية.

وفي سورة الأنعام: {وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ} (الأنعام: 123) غواية القرية هنا موضوعها أكابر المجرمين (الكفار) وهم الملأ القرشي وموضوع جرمهم ومكرهم هو تسفيه المستضعفين خارج القبيلة.

{وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ }ا (لأعراف: 4) وإذ يأتي القرآن ضاربا الأمثال لقوم أصابهم من بأس الله لشركهم وكفرهم بوصفه أسلوبا لمخاطبة أهل مكة، فإن بقوا على شركهم وكفرهم فإن مصيرهم سوف يكون مشابهاً لهؤلاء. وتأتي هذه الأمثال من قصص اليهود وفي هذه المرحلة فإنه يشبه هؤلاء العرب المشركين باليهود الذين عصوا الرب وعادوا أنبياءهم. ودائما في إطار الوعد والوعيد تأتي الآية:

{وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ) }الأعراف: 94)

وتبين هذه الآية بوضوح سلبية القرية على المستوى الديني، فهي في جوهرها فاسقة ولا يرسل الله أنبياء إلا في القرى التي هي مشركة في أساسها، فيصيبها وأهلها بالبأساء والضراء حتى يأخذوا سبيل الإيمان والرشاد. وهنا يقحمنا القرآن في رحاب التاريخ المقدس لبني إسرائيل فيشبّه ساكني مكة بيهود بيت المقدس، فيشير الله لبني اسرائيل.

{وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ } (الأعراف: 161) يأمر الله بني إسرائيل بسكنى بيت المقدس ليستبشروا خيرا، لكن لم يحمدوه على هذه النعمة بأن يطيعوه داخلين إليها سجدا، أي خاشعين حامدين نعمته عليهم، فإنه غفار يغفر خطاياهم ويزيدهم خيرا إن فعلوا ذلك. وتذكرنا هذه الآية بسورة قريش {لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ} (قريش: 1-4.)

وهنا تبدو بجلاء قاعدة التوحيد في الإسلام فالخيرات، وأمن الأنفس التي أعطاها الله لساكني مكة من قريش، دَيْن في رقابهم وجب رده إليه بعبادتهم إياه، وهنا يظهر بجلاء مضمون الدعوة الجديدة الذي يرهن وجود قريش وحياتها في الحرم بالإيمان به .فكل مقومات العيش فيه هي من فضل الله، وليس من بركة معتقدهم الوثني. وإن لم يفعلوا ذلك، فإن بلاء الله عليهم آت لا محالة وهذا ما يأتي في الآية: { وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ } (الزخرف: 23)

{وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ } (الأعراف: 163)

ويأتي في سورة النحل {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ} (النحل: 111-113)

وفي سورة الإسراء {وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا} (الإسراء: 58)، فيوم يحترم بنو اسرائيل السبت يبعث لهم الله بخيراته من حيتان يقتاتون منها ويوم يحجمون عن احترام السبت، لا تأتيهم الحيتان أي أن الله لقاء فسقهم بعدم احترام يوم الله يقطع عنهم خيراته. فكلها أمثال عن القرى الفاسقة، فإن عبدوا الله وأطاعوه أغدق عليهم بخيراته. وإن عصوه كف عنهم ذلك عقابا لهم، وكذلك حال قريش، فإن خيراتهم آيلة إلى الزوال إن لم يدخلوا الإسلام، ويعبدوا الله وحده. ويعطي القرآن مثالا عن أهل قرية من قوم يونس، ويماثل القرآن موقف النبي بموقف أنبياء بني إسرائيل وهنا يمثله بالنبي يونس إزاء قومه:

{وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ} (يونس: 98-102)والله في الآيات هذه يظهر بكل عظمة رحمته، فالله وإن أظهر غضبه على آل قريش فإنه لا زال رحيما رؤوفا بهم إن آمنوا وصدّقوا، والإيمان باب لا زال مفتوحا ليتوبوا وينقذوا قريتهم، فلا يلحق الدمار قرية إلا بعدما يأتيها رسولٌ بكتاب مبين فلا يطيعونه.

{وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ } (الحجر: 04.) وفي التي تذكر فيها كلمة قرية يحدد القرآن الكريم القوى المعادية وهم المترفون من الملأ من قريش الذين ناصبوا النبي ﷺ العداء، وكذبوا به. والمترفون إن ذُكروا فلا يمكن تسميتهم بذلك، إلا مقابل الضعفاء فهؤلاء حبسوا ثرواتهم في حدود القبيلة، فالقبيلة هي الوحيدة المستفيدة من الثروة أما الفئات الاجتماعية التي عمرت مكة والمساهمون في ثرائها مستضعفون: ممن لا عشيرة لهم، رقيقا كانوا أو أحرارًا فقراء، أو مقبلين على الفقر بفعل منطق التهميش الذي تمارسه القبيلة على غير أفرادها، فلا إنفاق على الفقير والمعدم واليتيم. ويوجه لهم القرآن نقدا لاذعا على أنهم بفعل كفرهم، تسببوا في الأزمة الاجتماعية والانفجار الاجتماعي الذي أتى على مكة.

{وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا} (الإسراء، الآية16.)وكأن القرآن يعطي أولوية العذاب والعقاب لهؤلاء المترفين:

{ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ} (المؤمنون: 64.)

{وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ} (الزخرف: 23)

وهنا يبرز الصراع الأيديولوجي العقيدي، حيث يضع القرآن الإشارة على مواطن الخلاف بين مرجعيتين للمعنى، مرجعية الأسلاف التي هي من جهة كبار القوم لإبقاء النظام الاجتماعي الاستغلالي القبلي على ما هو عليه، ومرجعية المعنى أو دين المعنى المبني على التوحيد المدافع عن نظام جديد يرقى بالقرية إلى مستوى المدينة، تدمج جميع الفئات الواقعة على أطراف القبيلة، والمهمشة اقتصاديا، في نظام اجتماعي يلغي حدود القبيلة، أو على الأقل يلغي التناقضات الاجتماعية المبنية على عقيدة الأسلاف وعصبية القرابة بين أفراد الجماعة الواحدة. وإن كان الدين الجديد يراهن على استقطاب هذه الفئات المهمشة ويسميهم "المستضعفين" مقابل المترفين، فإنه لا يبخل بوعيده لهم بخطاب تسمه نبرة من اللوم، وكأن الله يريد دعوتهم للتمرّد على أسيادهم المترفين:

{وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيص} (إبراهيم: 21)

{وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ} (غافر: 47.)

وهنا يبرز الخطاب القرآني الانحياز إلى المستضعفين من الرقيق والخدم والمهمشين في مكة. فهؤلاء الفقراء هم خميرة الإسلام والسند أو القاعدة الاجتماعية التي سوف يرتكز عليها حينما نرى أن من هؤلاء من كانوا من المسلمين وصحابة النبي ﷺ الأوائل، من أمثال آل ياسر، بلال الحبشي، زيد بن حارثة. سلمان الفارسي لأنهم رأوا في الإسلام عامل تحرّر من حبال التسفيه والتهميش التي كانت تقبض على رقابهم من قبل الملأ القرشي.

وخلاصة القول فإن دعوة محمد ﷺ بدأت في مكة وبدأت بالدعوة إلى التوحيد والتأكيد على أنه مبشر ونذير لقوم، لإنقاذهم من الوثنية والإيمان بأنه الرسول الناقل لوحي منزل. لا زالت دعوته تنتشر وأعيان قريش يستهزئون به

ويضايقونه ثلاثة أعوام. ولما ازداد عدد أتباعه من المؤمنين، خرج جاهرًا بالدعوة وساعدته في ذلك التناقضات القبيلة، وتعصّب أهله له بحكم علاقات القرابة، بادئاً بسبّ أصنامهم وتسفيهها أمام عظمة الله، وهنا تبدأ عملية تحويل دين المعنى.

فعبادة الأسلاف والأجداد ممثلة في الأصنام والقبور أصبحت باطلة لا تضر ولا تنفع (فقصي جد قريش، كان قبره مقصد زيارة قريش تقديسا وتعظيماً له) (جواد، 1993 م- 1413 هـ، ص 58). فالإيمان بالله الواحد هو الحق، فلا مكان للتقاليد والعبادات والطقوس الوثنية. جاء الإسلام بسلوك جديد، مخالف جذريا لتقاليد العرب، وهو الصلاة والزكاة والإحسان للفقراء والمنبوذين. وبذلك ترسّخت صورة النبي المشرّع، الذي ينادي بإقامة نظام اجتماعي جديد يتآخى فيه المؤمنون بغض النظر عن انتمائهم القبلي أو الإثني وذلك داخل الجماعة المسلمة الصاعدة.

النبي ﷺ في يثرب:

تبعد يثرب قرابة خمسمائة كيلومتر إلى الشمال عن مكة (غضبان، 1993 م-1413 هـ، ص27) وهي عبارة عن واحة ألطف مناخاً، (غضبان، 1993 م-1413 هـ، ص 36) يمتهن سكانها، في غالبيتهم، الفلاحة (جعيط، 2008م-1428 هـ،ص 302). سكنها حتى بداية البعثة الأوس والخزرج وهما قبيلتان عربيتان بالإضافة إلى اليهود من عرب متهودين وأكثرهم من بني إسرائيل كبني قريظة وبني قينقاع وبني النظير ويتراوح عدد سكانها بين الأربعة والخمسة آلاف نسمة (جعيط، 2008م-1428 هـ، ص 303) ولم تكن العلاقات بين مختلف ساكنيها مستقرة بين مختلف هذه الأطياف سواءٌ بين العرب فيما بينهم أو بين العرب واليهود. فتارة يتحالف اليهود مع الخزرج ضد الأوس والعكس صحيح. هذا الوضع من اللّاتجانس بين الساكنة والذي يميز الحياة الحضرية (هادفي، 2014 م- 1435 هـ، ص 184-169). ويثرب كما هو الحال بالنسبة لمكة ليست محمية بحصن أو جدار (غضبان، 1993 م-1413 هـ، ص38) ونظراً للخلافات والنزاعات التي كانت تنشب بين الفينة والأخرى، بين ساكنيها فإن كل حي منها اتخذ له حصوناً خاصة اسمها الآطام يحتمون وراءها من هجمات الأعداء (جواد،1413هـ- 1993م، ص129)، لأن يثرب أصلاً ليست هي المدينة بل ناحية منها (الحموي،1397هـ-1977م، ص430) وكانت أم قرى المدينة (الفيروزابادي، 1389هـ- 1969 م،ص 437)، وذلك عكس الطائف التي يزعم أهل الأخبار أنها سميت كذلك بحائطها المطيف بها" (جواد، 1993 م-1413 هـ، ص 143) والحائط ليس حصناً بينما يوضع الحصن لأغراض عسكرية. لكنه يدل على الأقل على انسجام التركيبة القبلية لذات البلدة والتي تقطنها قبيلة ثقيف، ولكن مكة أم القرى مع أن سكانها من قبيلة واحدة وهي قريش؛ يغيب فيها الحصن والجدار ولكن تضاريس الجبال المحيطة بها تجعل سكانها في منعة عن أي اعتداء خارجي (هورخرونيه، 1999 م- 1419هـ، ص27).

كانت الأوضاع في يثرب وصلت حدا من التناقض يتوجب حتماً حلّا عاجلاً؛ تنافر قبلي ولّدته لعبة التحالفات بين مختلف الأطراف، الأوس والخزرج من جهة، واليهود من جهة أخرى، حيث لم يكن التحارب بين القبائل العربية ضد اليهود وحسب، بل كان بين كبرى القبائل العربية الأوس والخزرج. وكان اليهود يلعبون على وتر هذا التنافر لحفظ مصالحهم وسيادتهم على القرية. وكانت تقيم فيها ساكنة أكثرهم من يثرب يرتزقون من الزراعة. والجوار فيها كان يحكمه الاشتراك في المورد الاقتصادي تغلب عليه الزراعة بالإضافة الى التجارة التي كان يحتكرها اليهود، وكان مستحيلاً في نفس الوقت التعايش بين هذه القبائل إلا بتغلب إحداها على الأخرى بحكم العصبية القبلية التي تكره التماهي والذوبان حفاظا على التمايز الهوياتي، بحيث يستحيل إلحاق هذه تحت سلطة تلك وإلاّ فإنها تغادر وكان يبدو هذا الإمكان مستحيلا، بحكم تكافؤ القوى، فبقيت الحرب الدامية المستمرة بين القبيلتين والتي ربما كان بمقدورها القضاء على كلتيهما.

وبلغ ذلك النبي عندما التقى مع وفد من الحجيج من قبيلة الخزرج التي ليست غريبة عن محمد ﷺ، لأن أخوال أبيه عبد الله من بني النجار، وحسب رواية كتّاب السيرة فإن هؤلاء اشتكوا له من شر ما يلقونه من اليهود، إذ سألهم محمد من أنتم؟ قالوا نفر من الخزرج، من موالي اليهود؟ قالوا: نعم، قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى. فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله عزّ وجلّ، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن. قال: وكان مما صنع الله لهم به في الإسلام، أن اليهود كانوا معهم في بلادهم وكانوا أهل كتاب وعلم وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان، وكانوا قد غزوهم ببلادهم، فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم: إنا نبينا مبعوث الآن، قد أضل زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم "ثم شكوه ما كان بينهم من عداوة" إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك (ابن هشام،1990م – 1410 هـ، ص 77). سواء أصحّت هذه الرواية أم اختلقت فإنها تدل على انسداد الوضع الاجتما-سياسي في ظل النظام القبلي العاجز عن تسيير أمور ساكنة يثرب. شكلت هذه الحالة بالنسبة لمحمد الأرضية الموضوعية المناسبة لنشر دعوته، وتحقيق مشروعه المتمثل في تأسيس جماعة إسلامية تسيّر شؤونها وفق الشريعة.

دخل محمد ﷺ يثرب على ناقته، وقد استقبل استقبالا حارا ودلالة ذلك أن سكان المدينة قد انخرطوا سطحيا أو عمقا في دعوته، وليس هذا وحسب، إذ أن شروط بيعات العقبة لم تُلغ بل هي قيد التطبيق. وهذا ما جعل النبي ﷺ آمنا ومطمئنا بين سكان يثرب وكان التعبير عن هذا الانخراط هو محاولة كل حي استضافته. وحتى لا يغضب أي من أشراف هذه الأحياء ونظرا لحِلمه وحكمته، فإنه ترك الأمر لناقته وكانت طريقة سليمة لاختيار مقامه، وكأن الناقة تلقّت وحيا يأمرها بالتوقف في مكان معين، "حتى إذا أتت دار بني النجار، بركت على باب مسجده صلى الله عليه وسلم، وهو يومئذ مرب لغلامين يتيمين من بني النجار، ثم من بني مالك النجار وهما في حجر معاذ ابن عفراء، سهل وسهيل ابن عمرو فلما بركت، ورسول الله صلى الله عليه وسلم عليها لم ينزل، وثبت وسارت غير بعيد، ورسول الله واضع لها زمامها لا يثنيها به، ثم التفتت إلى خلفها، فرجعت إلى مبركها أول مرة، فبركت فيه ثم تحلحلت وزمت ووضعت جرانها، فنزل عنها رسول الله ﷺ وسأل عن المربد لمن هو؟ فقال له معاذ بن عفراء، هو سهل وسهيل، ابني عمرو، وهما يتيمان لي وسأرضيهما منه، فأتخذه مسجدا (ابن هشام،1990م – 1410 هـ، ص495-496)."

وكان المسجد أول فضاء تمارس فيه سلطة الجماعة الجديدة في المدينة وأول لبنة تتحول فيها يثرب من قرية إلى مدينة، يتناسى هشام جعيط في كتابه نشأة الدولة الإسلامية أن نموذج المدينة الإسلامية، هو يثرب كمؤسسة سياسية وليست الكوفة؛ التي هي حقاً مدينة متطورة جُعلت منطلقاً لفتوحات تجاه الشرق من العراق ولكنها وحسب جعيط ذاته جعل فيها المسجد والقصر بناءيْن أساسيْن للمدينة ما يعني أن نموذجها الأول هو مدينة الرسول ﷺ بالإضافة إلى الأحياء السكنية (جعيط،1986- 1406، ص423) ولكن يثرب ليست تجمعاً سكنيا جديداً. إذ حسب المؤرخين " لم يكد الرسول يبتاع المربد من صاحبيه سهيل وسهل من بني عبد النجار حتى شرع في بناء مسجد للمسلمين " (السيد عبد العزيز، 1993 م-1413 هـ، ص71) ولأهمية المسجد بالنسبة لوحدة الجماعة الإسلامية فإن بناء مسجد ضرار كان بالنسبة للجماعة الأولى الناشئة تهديداً لوحدتها وخلقاً لسلطة موازية ما جعل القرآن يعارض بشدّة بناءه دون إذن من الرسول ﷺ(سورة التوبة، 107-109)

والحقيقة أن اسم المدينة ليس جديدا ويشير جواد علي إلى أنها عرفت بـ "يثربه" Jathripa في جغرافيا "بطليموس " وعند "أصطيفان البيزنطي". وعرفت بـ"المدينة" كذلك من كلمة (Medinto) (Medinta) الإرمية التي تعني مدينة في عربيتنا "وهكر" في العربية الجنوبية وقد ورد اسمها في الكتابات المعينية ويظهر أنها عرفت بـ "مدينة يثرب" على نحو ما وجدنا في كتاب "أصطيفان البيزنطي ثم اختصر، فقيل لها "مدينتا" أي المدينة ولما نزل الرسول بها، عرفت بـ "مدينة الرسول " (جواد،1993 م-1413 هـ، ص130) فلماذا هذا التحول من اسم يثرب إلى المدينة مع أن

المؤرخ البزنطي الذي ذكرنا أعلاه سماها المدينة ولكن سماها العرب "يثرب"؟ رغم ذلك وها هو الرسول يدخلها فيصبح اسمها المدينة من جديد.

دلالة المدينة في النص القرآني:

يذكر القرآن كما أسلفنا كلمة قرية في أكثر من ثلاثين موضعا والقرية بالمفهوم القرآني فاسقة ولا تخضع لا لسلطة ولا راع أما المدينة فيأتي ذكرها أربع عشرة مرة فبالإضافة إلى ذكر المدينة "يثرب" فغالبا ما تدل المدينة على الحواضر الخاضعة لسلطة وملك ففي سورة الأعراف يأتي ذكر المدينة عندما يدخل اليهود عند اتّباعهم موسى في صراعه مع فرعون متوعّدا إياهم برد منه.

{ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ})الأعراف الاية123)

وفي: (وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} (يوسف: 30.)

{ ودخل (أي موسى) المدينة..... } إلى آخر الآية.(القصص: 15.)

{... يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى..... } (الكهف: 19.).إلى آخر الآية. فكل هذه الآيات تورد قصصا جرت أحداثها في بلدان بلغت فيها الحضارة مبلغا كمصر وبلاد الروم، بلدان استحكم فيها الملك قانونا وشرعا. ولكن سوراً أخرى تبدو في ظاهرها منافية لهذا التحليل منها سورة "النمل":

{قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ})النمل الايتان33-34) هنا تقصد الملكة بلقيس، مملكتها التي يقزمها القرآن الى درجة القرية رغم أنها مملكة مُساسة بشرع، ولكن هل يعلو شرع" أُولُي القُوَّةٍ وَأُولُي البَأْسٍ"، والتي يقابلها آنذاك "الملأ المكي وأعيان القرى الأخرى"، على شرع منزّل على نبي وريث أبيه النبي والملك داوود؟ وتتوضح الإشكالية أكثر من خلال الآيات التالية: { فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا..... }ولاحقا في آية أخرى نفس هذه القرية تنعت بالمدينة:{ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا} في نفس السورة:{ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ....." قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ" } (الكهف 13-19-20-21)من خلال نص الآيتين تتضح فكرة تحويل اسم يثرب إلى ما هي معروفة به لحدّ يومنا وهو "المدينة" فتذكر القرية في الآيتين الأوليين بصفتها موضعاً وقعت فيه مظلمة أو أن المترفين والمسرفين على شاكلة الملأ المكي كذبوا بالمرسلين ويأتي من ظهرانيهم من ينصرهم ويدعوهم للإيمان بهؤلاء مثلما نصر الأوس والخزرج دعوة نبي الإسلام ﷺ. إذاً المدينة هي كل تجمع سكاني، مهما كان مبلغ حجمه، ولكن يحكمه قانون ويسوده ملك. وأفضلها تلك المدن التي يحكمها أنبياء مرسلون مثل النبي سليمان يحكمونها بشرع الله أو تلك التي وطئتها أرجل المرسلين الحاملين للعدل الإلهي والمبشرين به على شاكلة الخضر ورفيقه موسى.

وكل هذه الصفات تنطبق على يثرب التي استقبلت النبي ﷺ الحامل للشرع والمبشر بالعدل الإلهي، ولذلك نجد أول مبنى –قد أشرنا إليه أعلاه- شرع النبي في بنائه كان المسجد الذي أصبح مكانا لإقامته ومكانا للصلاة، وللتشاور في تسيير شؤون المدينة والقيادة العسكرية (سل، تطور القرآن التاريخي، ص

www.muhammadanism.org56.). ويشير محمد عبد الستار عثمان في كتابه "المدينة الإسلامية" أن البحث اللغوي يشير إلى أن كلمة مدينة ترجع أصلا إلى كلمة "دين" وأن لهذه الكلمة بهذا المعنى أصلا في الآرامية والعربية أي أنها ذات أصل "سامي" وعرفت المدينة عند الأكاديين والأشوريين بالدين أي "القانون" كما أن الديان يقصد بها في اللغة الآرامية والعبرية "القاضي"، وإضافة إلى ذلك فإن مصدرها في الآرامية "مدينتنا " وتعني "القضاء" (عبد الستار، 1978 م- 1398 هـ، ص 15).

الوثيقة ومهام النبي الحَكَم المشرّع:

والدليل التاريخي على قيام المدينة الإسلامية أن أول مهام النبي عندما دخلها، باشر تحت مظلة التوحيد بهدم العصبيات القبلية؛ حدث له دلالاته الرمزية من جهة، ومن جهة أخرى دلالات سياسية، حيث بادر مخاطبا المهاجرين والأنصار بأنهم إخوة ليس بعلاقة الدم بل في الإيمان. ويروي ابن هشام وابن إسحاق جانبا من هذا الحدث، يقول النبي:

"تأخذوا في الله أخوين آخرين: ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه وعتبان بن مالك أخو بني سالم..... إلى آخر القول حيث يؤاخي النبي بين المهاجرين والأنصار ويدك بينهم الاختلافات العائلية والقبلية والضغائن بينما كان صائر من أحقاد ومن عقود بين الأنصار ذاتهم، ولم يتم لهم ذلك إلا بعد أن ينصروا ما جاء في معاهدة وضعها النبي تضبط علاقات المؤمنين. بين مهاجرين وأنصار من جهة وبينهم وبين أهل الكتاب من جهة أخرى من اليهود" (الجابري، 2000 م-1420 هـ، ص 93)

وسميت هذه المعاهدة بالصحيفة أو دستور المدينة وهذا مختصر نصها:

هذا كتاب من محمد رسول الله بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب ومن اتبعهم فلحق بهم وجاهد معهم.

- إنهم أمة واحدة من دون الناس. تعدّ هذه العبارة إفصاحاً عن اللهوية المتميزة للجماعة الإسلامية الناشئة.
- المهاجرون من قريش وبنو عوف وبنو الحارس (من الخزرج) وبنو سعادة وبنو جشم وبنو النبيت وبنو النجار وبنو عمرو بن عوف وبني الأوس: ما يعني أن المؤمنين والمسلمين ممن هاجروا من مكة هم جماعة متميزة مع اليثاربة، من دون الآخرين بمعنى أن الوثيقة مهدت بتحديد هوية الجماعة المسلمة
- وأن المؤمنين لا يتركون مفرحاً بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه. كل من مفرح أي من ثقل عليه الدين، وتؤكد الوثيقة على استدانة المسلم وخاصة من لدن اليهود المرابين، الذين قد يستتبعون المدان ويلحقون به الأذى المادي والمعنوي، لذا توصي الوثيقة بالتضامن مع المؤمن المدان بمساعدته على التخلص من دينه. كما أنها توصي أيضاً بالتضامن من أجل دفع عقل (دية) أحدهم إذا تورط في حادث قتل.
- وأن المؤمنين المتقين أيديهم على كل من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم أو إثماً أو عدواناً أو فساداً بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم. بمعنى أن كل من ظلم ضمن هذه المعاهدة يعاب على ظلمه أو يصد حتى وإن كان من ذوي القربى فالمصلحة العليا للجماعة تتعالى فوق قرابة الدم.
- ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر ولا ينصر كافراً على مؤمن. من خلال هذا البند يتضامن المؤمنون فيما بينهم فمن قتل منهم كافراً لا يطبق عليه القصاص، ولا ينتصر مؤمن لكافر على مؤمن.

- وأن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم، وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس للمؤمن حق الإجارة من لدن المؤمن كعربون تضامن فمن أجار أحداً فقد منحه الحماية ولكن دائما في إطار القوانين التي نصت عليها الصحيفة.
- وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم. هذا البند أساسي في بناء الجماعة على اعتبار أن اليهود هم من ساكنة يثرب ولهم واجب على جيرانهم المسلمين في الدفاع عن المدينة وتدبير شؤونها.
- وأن سلم المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم. وتعني أن القتال في سبيل الله مكتوب على كل مؤمن وكل سواسية في أدائه.
- وأن كل غازية غزت معنا يعقب بعضهم بعضاً. بمعنى أن الكل جماعة غازية مع المؤمنين عليها واجب أن تعقب الأخرى لحماية المدينة وثغورها.
- وأن المؤمنين يبيء بعضهم عن بعض بما نال دماؤهم في سبيل الله. يبيء بمعنى على منزلة واحدة، فكل ما يصيب المؤمن في القتال فإن يتساوى فيما يناله من تعويض تضمنه الجماعة كإعالة الأطفال والزوجة.
- وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه.
- وأنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً ولا يحول دونه على مؤمن. هذا البند يجعل من قريش العدو الأول للجماعة المسلمة الناشئة وبالتالي فإن مال قريش لا يُجار وهو بالتالي مستحل على كل مؤمن.
- وأنه من اعتبط مؤمناً قتلاً عن بينة فإنه قَوَدٌ به إلا أن يرضى ولى المقتول (بالعقل)، وأن المؤمنين عليه كافة لا يحل لهم إلا قيام عليه. بمعنى أن كل مؤمن قتل مؤمناً عمداً ومن دون حق وجب عليه القصاص.
- وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً أو يؤويه. ومعناه أن كل مؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر يحرّم عليه نصرة كل من ارتكب جرماً.
- وأنه من نصره أو أراه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل. وهذا جزاء كل من انتصر لمجرم.

وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله وإلى محمد.، ذلك من الطرف الأول ونظامه الداخلي (الجابري، 2000 م-1420 هـ، ص94) أي المهاجرين والأنصار أما الطرف الثاني فهم اليهود فتقرر الصحيفة في شأنهم ما يلي: وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين وإنهم بجميع طوائفهم يشكلون في هذا المجال، مجال الحرب أمة واحدة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وإثم فإنه لا يرتغي إلا نفسه وأهل بيته وإن ما لليهود بني النجار ما ليهود بني عوف، وهكذا بالنسبة لجميع طوائف اليهود وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد صلى الله عليه وسلم، وأنه لا ينجر على ثأر جرح، وأنه من فتك، وأهل بيته إلا من ظلم، وأن الله أبر هذا وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وإن بينهم (بين المسلمين واليهود) الفصح والنصيحة بدون الإثم، وإنه لم يأثم أمرؤ بحليفه وإن النصر للمظلوم وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

ثم تقرر الصحيفة تحريم القتال في يثرب وتنص على الدفاع المشترك فيها، فمن جهة: إن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم، وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها - أهل يثرب- ومن جهة أخرى: إن بينهم - المتعاقدين بهذه الصحيفة -، النصر على من دهم يثرب- المدينة وإذا دعوا إلى الصلح يصالحونه ويلبسونه، وإنهم إذا دعوا إلى ذلك فإنه له على المؤمنين إلا من مأرب في الدين، على كل أناس من جانبهم الذي قبلهم، وتقرر الصحيفة أنه لا يجوز لمشرك ولا ليهودي من أهل يثرب أن يجير أي شيء لقريش، وبمعنى آخر إن الطرف الأول

(المؤمنون) يعلن للطرف الثاني أنه في حالة حرب مع قريش، فإنه يتوجّب الامتناع عن مساعدتها بأي شكل كان، وهكذا تؤكد الصحيفة: أنه لا يجير مشرك (أهل يثرب) مالا لقريش ولا نفسا ولا يحول دونه على مؤمن وأيضا مع اليهود. (الجابري، 2000 م-1420 هـ، ص 95)

وتقرر الصحيفة أن المرجع في الخلاف هو محمد ﷺ سواء كان الخلاف بين المؤمنين والمسلمين بعضهم مع بعض أو بينهم وبين اليهود، وهكذا توجه الخطاب للمؤمنين وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإنما مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد، ثم تؤكد، والخطاب موجه لليهود: إنه ما كان بين هذه الصحيفة من حدث أو شجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله ﷺ وأن الله على ما أتقى وأبرى في هذه الصحيفة، تعتبر هذه الصحيفة أول نظام مكتوب يحكم العلاقات الاجتماعية بين العرب وجيرانهم اليهود تحت مظلة الإسلام في التاريخ.

ولكن رغم هذا التوحيد فإن الصحيفة تأتي على وصف الواقع السوسيولوجي لهذه الأمة فمن جهة المؤمنون والمسلمون الأوائل ممَّن اعتنقوا الإسلام عن قناعة، ويعتقدون أنه الحق. وأما المسلمون فهم من أعلنوا الولاء فقط ويعّرف الجابري هؤلاء انطلاقا من الآية: { قالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} (الحجرات 14)، ولكن الصحيفة تعتبر المسلم هو كل من جهر أو تظاهر بإسلامه لكنه كان يبطن العداوة والحقد لمحمد وأصحابه، وبما أنهم أعلنوا عن إسلامهم أي خضوعهم السياسي، فإن اسم (الإسلام) يجمعهم في أمة أي ملة واحدة مع المهاجرين والأنصار.

خاتمة:

تعتبر هجرة النبي إلى يثرب حلقة فاصلة في تطوّر الدعوة الإسلامية، فهي مغادرة القرية- القبيلة المحافظة الواقعة تحت سلطة الأعيان والذين يستندون في سلطتهم على عبادة الأجداد عبر الآلهة الوثنية، ويبدو لي أن اسم "أم القرى" الذي أطلقه الله تعالى على مكة ليس لأنها متفوقة عمراناً وتجارة وفي شتى أنواع الكسب، بل لكونها مدينة مبنية على أساس العصبية القبلية وعبادة الأوثان، وشدة العداء للدعوة الجديدة المهدّدة لسلطة الملأ المهترئة وبالتالي لسلطة العشيرة. وكانت الهجرة إلى يثرب انتصاراً للنبي وللتوحيد الديني وبناء الجماعة الدينية والسياسية المتعالية على التمايز القبلي، وقبول قضاء ما يحكم فيما اختلفوا فيه فرصة لتعجيل قضاء المصير التاريخي للإسلام. يثرب لم تكن ملكاً لقبيلة واحدة بل فسيفساء من قبائل عربية ويهودية وعقائد توحيدية ووثنية. هذه هي القرية التي تحتاج إلى قاض يبث بين سكانها روح العيش المشترك ولن تجده إلا تحت مظلة النبي الموحد وفي هذه الفترة بالذات ظهرت عبارة "الجار" بصفتها مفهوما سياسياً يقرّب البشر ليس على أساس السكنى وحسب بل على أساس العيش داخل الجماعة المتراصة وفق شرع جديد يتعالى على الانتماءات القبلية أو الإثنية أيضاً. هذه الوضعية، أهلته ليغير اسم القرية لتصبح المدينة المحكومة بوثيقة تستحق أن يرجع لها كل سياسي عاقل ليعيد تأسيس المدينة الإسلامية الحديثة، هذه الوثيقة التي أحكمت بنودها بتوافق جموع الساكنة، تحفظ لكل صاحب حق حقه بغض النظر عن انتمائه العقيدي الديني أو الإثني.

ويتربع النبي في المسجد الجامع مقر التشاور وفض الخلافات بصفته القاضي الذي لقي إجماع الساكنة كلها ليحكم بينها. لم يدم هذا التوافق وقتاً طويلاً ولكنها كانت تجربة فريدة في التاريخ الإسلامي والتأسيس للمدينة والحضارة الإسلاميتين.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.

- ابن هشام، أبو محمد عبد الملك ابن هشام. 1990-1410. السيرة النبوية. ج2. ط3. دار الكتب العربي. بيروت.
- أبو زهرة، محمد. (بدون تاريخ) بحوث في الربا. دار الفكر العربي. دار الفكر العربي. القاهرة
- البغدادي، محمد بن حبيب. (1405-1985). المنمق في أخبار قريش. ط 1. دار عالم الكتب. بيروت.
- التيجاني، عبد القادر حامد. (1415-1995). أصول الفكر السياسي في القرآن المكي. ط 1. دار البشير للنشر والتوزيع. عمان.
- الجابري، محمد عابد. (2000-1420). العقل السياسي العربي محدداته وتجلياته. ط 4. مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت.
- جعيط، هشام، (1986- 1406). الكوفة، نشأة المدينة الإسلامية، ط1، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت.
- جعيط، هشام، (2008-1428)، في السيرة النبوية 2، تاريخية الدعوة المحمدية، ط 1، دار الطليعة للطباعة والنشر. بيروت.
- الحموي الرومي البغدادي، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت. (1988م -1398ه). معجم البلدان. المجلد الخامس. دار صادر. بيروت.
- دغيم، سميح. (1415 -1995). أديان ومعتقدات العرب قبل الإسلام. ط 1. دار الفكر اللبناني. بيروت.
- زيود، حازم حسني، (2016- 1437) " مفهوم القرية ودلالاتها في القرآن الكريم :دراسة موضوعية"، مجلة الجامعة العربية الأمريكية للبحوث، مجلد2، العدد 2، ص: 1-31. جنين.
- سل، كانون. تطور القرآن التاريخي. ترجمة مالك مسلماني. النسخة الالكترونية. www.muhammadanism.org.
- عبد الستار، عثمان، محمد. (1978-1398). المدينة الإسلامية. سلسلة المعرفة. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت.
- عبد العزيز سالم، السيد، (1993- 1413). تاريخ الدولة العربية، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر. القاهرة.
- علي، جواد. (1413-1993) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام. ج4. ط 2. جامعة بغداد.
- غضبان، ياسين، (1993 م- 1413 ه)، مدينة يثرب قبل الإسلام، دار البشير للنشر، عمان.
- الفيروز أبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، (1978م -1398ه) المغانم المطابة في معالم طابة . ط1 تحقيق حمد الجاسر. دار اليمامة. الرياض.
- قطب، السيد، (2003 م - 1423ه). في ظلال القرآن، ط 32، دار الشروق. القاهرة.
- كرون باتريشيا، (2005-1425)، تجارة مكة وظهور الإسلام، ط2، ترجمة أما محمد الروبي، المجلس الأعلى للثقافة. القاهرة.
- المصطفى، ولد أحمد سالم الشريف. (2017م-1438ه). الخدمان في مجتمع العرب البيضان: دراسة حول الرِّق والموالي مع عرض تفصيلي، ط 1، منشورات إي-كتب، لندن.
- النميري البصري، عمر بن شبة بن عبيدة بن ربطة (1979 م -1399ه) تاريخ المدينة المنورة. تحقيق . فهيم محمد شلتوت . الناشر. السيد حبيب محمود أحمد.
- هادفي، سمية (2014- 1435) " سوسيولوجيا المدينة وأنماط التنظيم الاجتماعي الحضري"، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد 17. جامعة سكيكدة.